إن كان حال الإنسان بين الذكر والنسيان فشتان بين مقـام الـذكر والنسـيان من أب معلم راعٍ موجـه ..وإن كـان النسـيان للناس نعمة فالذكر في حقك حق .

كيـف أنسـى أول طلـة ؟! أول محاضـرة . أسـميتها طلـة الترقب ، نعم كنا نترقبك جميعا – طلبة السـنة التمهيديـة - وكنت أترقب كالبقية أول طلة لهذا الأسـتاذ الـذي يسـبقه صـيته وهيبتـه حتى هللت من أول الطرقة تمشي بحـزم وعجـل ، فتلاقت أعين الحاضـرين بـك وتحسسـت الأنفس من بعضـها أنسـاً ، لن أنسـى هذه الطلة أبدا ، كنا غرباء وكنت غريبة حتى ابتُعثتَ.

التقنين والموسوعية ، الأصالة والتقدمية ، الطرح والمناقشة ، الأرضية التي نصـبتَ عليهـا أعمـدة محاضـراتك لنـا في السـنة التمهيدية ، وبين إحاطة الملقي وابتدائية المتلقي أُشـربنا مشـربا يشـحذ الفكـر فرصـدنا و وعينـا عنـك وانتهينـا في خَلـق فكـري وثقافي وإنساني جديد ، دمت جديدا وسعيدا .

التقنين والموسـوعية، منهجٌ رصـدتُه بنظـرة موازنـة مـا بين مناقشة المحاضرات وطـرح الكتـابين المقـررين ، تقـنين الكتـاب وموسـوعية المناقشـة ، أمـا التقـنين فللتوحيـد والجمـع ، توحيـد الفكرة وجمع العقول على اختلاف ثقافاتها المحلية - كنا مصريين وليبيين وسوريين- حول فكرة واحـدة وهي (الاستشـراق) وهـو الهدف بحدوده واتجاهاته وأمثلتـه ، وأمـا الطـرح الموسـوعي في المناقشات فكان الغرض منها تنمية الوعي الثقـافي التقـدمي مـا بين التجليات المعرفية والإنسانية والتربوية .

الأصالة والتقدمية ، مابين أصالة الفكرة وتقدمية المفكر كان لكتابيك في نفسي لذة وفرحـة واطمئنـان ، لـذة الثقافـة وفرحـة الـدفاع عن الـدين الحـنيف واطمئنـان الأصـول ، فرحـة النشـء يطمئن لأصوله كفـرع أخضـر اسـتقوى لمـا وجـد الجـزع مسـتوٍ على سوقه فأعجبت الزراع وغظت الكفار .

وما بين كتابيك عن الاستشراق " إسلام د: جيفري لانج ، قراءة في كتابـه النضـال من أجـل الاستسـلام " و كتـاب روجـر آلن " مدخل إلى الأدب العربي " اتخذتَ منهجا عمليا في عرض جانبين

من جوانب الاستشـراق واتجـاهين من الاتجاهـات الاستشـراقية ، الاتجاه الأول وهو الاتجاه المحايد متمثل في كتاب د: جيفري لانج ، والاتجـاه الثـاني موجـه مغيب يعـرض للفكـر بعين العنصـرية لا بعين الحـدث الواقـع فيبـني آراءه على سلسـلة من الافتراضـات ويتمثل في كتاب روجر آلن . وأذهلني احتواء الكتابين على الكثير والكثير من القـراءات في كتب الـتراث للـرد على المستشـرقين في جمع بين الأصالة والمعاصرة .

وكان لكتاب " إسـلام د: جيفـري لانج التـداعيات والـدلالات " موقعا خاصا في نفسي بمـا حـواه من ترجمـات لمواقـف روحيـة عرضتَ لها في كتاب حضـرتك ترجمـة عن كتابـه الأصـلي ، مثـل عرضـك بالترجمـة لأول صـلاة فجـر صـلاها جيفـري لانج في بيتـه وأبهرتني حبكة النقل عن المؤلف بسلاسة عربيـة رسـمت بعنايـة المعاني قبل الكلمات هذا الصراع العنيف في نفس المؤلف عنــد أول صلاة صلاها ، صراع بين الركوع والعجرفة ، صراع بين النــور والمتاهات ، ورهبة اقتحام أرض نفسية جديدة وبعيـدة كـل البعـد عن أرض مكانيـــة أمريكيـــة أرهقتهـــا الصـــراعات العنصـــرية والتمييزات الثقافية والعرقية ، فكان صـراعه وصـراعه وصـراعه إلى الاستسلام ، استسلامٌ لله ، وحلت بأرض النور قدماه .

ولك يا أسـتاذي في كتابـك هـذا شـأن عجيب ، فكأنـك أنت المحقق والمدعي ، نعم ، تعرض للفكرة ثم تستشرف التساؤلات المشككة فتهدرها- التساؤلات- بالردود الدامغة ، فتلقم الطـاعن الحجر وراء الحجر ، وعلى هذا جاء كل الكتاب فحص وتفنيــد ورد على المــدعين خاصــة في فصــل القــرآن والعلم وهــو من أهم فصـول الكتـاب وأحبهـا لنفسـي ، حيث بيـان الاختلاف الفكـري والأسلوبي بين روحي القرآن الكريم والكتـاب المقـدس ، أو كمـا يسـمى اختلاف الشـكل والمضـمون للـرد على من قـال ببشـرية الكتاب الكريم ، فأجدك وقد حشـدت لهـؤلاء المـدعين دراسـاتك مـابين العلـوم الاستشـراقية ومقارنـة الأديـان والنقـد الأدبي في تحفز فكري وحشد ثقافي ألهب فصول كتابك وأطفأ ظمأي لمثل هذه الدراسة التقنينية الحماسية في آن واحد .

الاحتواء الفكري صفة هي أكثر ما التمستها فيك ، نـادر أنت بميزتي الاستماع والقـراءة ، تسـمع منـا ونسـمع منـك نقـرأ لـك فنتعلم وتقرأ لنا فتقوِّم ، والحق يقال أكثر ما وجدت هـذه الصـفة بإنسـانيتها عنـدك وعنـد أسـتاذي الـدكتور (يوسـف نوفـل) أسـتاذ الأدب الحديث بكلية البنـات ، فنـدرتما وسـط الكثـير ممن حُمِّلت أكتافه بالألقاب ولم ترَ عينه أبعد من سن قلمه .

وعلى هذا قدمت إليك أول كتاباتي مجموعة قصصية ابتدائيـة ونلت من هذه القراءة الشـرف ، ورغم مجازفـة الابتـداء وجـدتك صابرا ، بينما كان أسـتاذي الـدكتور يوسـف مرحبـا وسـجل نقـده وتقويمـه على كتابـاتي وكـافئني خـير المكافئـة ، وكنت أول من استنطقني نقـدي في أول محاضـرة بعـد تقـديم الكتابـات إليـك ، تجربة جديدة ، وكأنك كنت تقول لي : كما جربتِ لذة الفن جربي لذعـة النقـد حين تكـوني المنقـودة وهيمنتـه وعلـوه حين تكـوني الناقدة وكوني خير معلم ومتعلم لنفسك ومن نفسك .

فأخذت منك علما ، و أخذت منك مـالا ، وأخـذت منـك كتبـا ، وأخـذت منـك هبـات حلـوة الطعم ، وهـذا عهـد من يجـاورك ، يسعد ، أُتيتَ السعد كله آمين .

وإني وإن كنت لم أنعم بتـــدريس حضـــرتك لي في مرحلـــة الليسانس حيث اللاموسـوعية والتحكم ، فيـأبى اللـه إلا أن ننهـل جميعا من توجيهاتك التي نمت فينا جذور التطلع والتوثب والحـذر من أعين كثيرة تتربص بنا لكوننا نشأ لجيل يفترض أنه مسلم كما ينبغي أن يكون المسلم ، لكنه يُعمى ويُصـم في زمن كـثرت فيـه البهرجة وعلت فيه الأصوات ، فهداك الله إلينا وهدانا إليك لتقـف منا موقف المرشد ونقف منـك موقـف المتعلمين الظـامئين إلى هذا الكم من العقلانيـة والتنبـه والحيـاد ، أدام اللـه -عـز وجـل – عليك فيض علمه أستاذنا ، وأدام علينا علمك آمين .

هل النساء هن أكثر أهل النار ؟ كـان هـذا هـو موضـوع أكـثر النقاشات الـتي شـهدناها معـك سـخونة وحماسـة وأدلى الجميـع بـدلوه ورمي كـل ممن حضـر سـهما صـاب أو خـاب بخصـوص

الموضوع ،ومن الحضور من هو مبرر بهوى وجزاف ومن هو منصت مترقب ومن أدلى بسهم من علم قديم ، ثم امتد النقاش لقصة امرأة العزيز وفتنتها ليوسف الصديق عليه السلام ، فعرضت للأقوال فيها والردود ودفاعك وبحثك فيما وراء الحدث من اعتبارات نفسية ، إذ كيف حال امرأة يقيم في بيتها نبي من أنبياء الله !! صحيح أنه لم يكن مقامها منه مقام مريد من نبي إذ لم يتهيأ له وقتها مقام النبوة ، وإنما التمست منه بفطرتها مقام الإنسان الأعلى ، فريد الزمان ، واعتبارات غريزية فطرية ، يوسف أوتي شطر الجمال !!

ومنك ألهمتُ دعائي (اللهم اغفر لامرأة العزيز فإنه كان يوسف) ومدّ كل منا لك بقصعته ، رجالا ونساء ، كنا فتيات كلية البنات حديثات عهد باختلاط ، وأسهبت حضرتك في الشرح والتوصيف وكنا غريرات ، وما أدراك بالفتيات حين تأخذهن الحمية ، فالتبسنا وجوم الغريرات وبكت إحدى صديقاتي العزيزات خجلا ، الحقيقة أني لم أجرب يوما أن أبكي خجلا – وأتمنى ألا يأتي هذا اليوم - فالظاهر أنها كانت ومازالت شديدة الرقة والحساسية ، أما أنا فغالبا كنت أجلس بين الحضور أمارس موهبتي الطفولية في رصد انفعالات الحضور وتعليقاتهم ، وأتابع حركات يديك المفسرة للشرح فيما يشبه الوسواس ^^ ، ولشد ما أفادتني هذه المتابعة فكلما كانت انفعالاتك في مناقشة أشد حماسة وانفعالا كلما استحوذ موضوع المناقشة على تفكيري ونفسي .

وانتهت المحاضرة واستبقت إليك من باب الغرفة إلى باب السيارة وقلت كالمدفع الرمضاني الذي انطلق في غير معاد الإفطار : يا أستاذي هذه أول مرة يكلمنا أحد فيها عن امرأة العزيز بهذه الرؤية ، إلا أننا لم نعتد مثل هذا الكلام بشرحه وتفسيره ونحن رجال ونساء ، فنرجو منك رفقا واعتبارا .

وهنا أقول لك : قرأت حديثا في كتابك "إسلام د: جيفري لانج " أن النطفة تشمأنط وهي بين يدي باريها أن يدخل والديها جنته ، وهي ما هي تتدلل بين يدي العزيز المتكبر ، فيبدو أنّ هذا نصيب الجهلاء أمام العلماء – حاشا لله أن أشبه به أحدا – فلا تغضب مني لتجرأي فإنما كان سفها من مبتدئ ، ولا يزعجك مني كثرة سؤالي ، وأدعو الله أن أكون منك خير متعلم ، ألهمك الله علينا صبرا وألهمنا فهما ووعيا ، جزاك الله عنا خيرا ورحمك وأحبتك والمسلمين .